مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة التاسعة، العدد الثالث، خريف ١٤٣٤-١٤٣٥ هـ
صفحة ٥ – ٢٧

صدى العزة في أشعار الحروب الصليبية

سيد محمد باقر حسيني[١]، زهراء أميري[٢]*

١. أستاذ ـ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فردوسي، مشهد
٢. طالب دكتوراه ـ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فردوسي، مشهد

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٤/٥/٣٠ ؛ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٩/٢٧)

ملخّص المقال

أدب الحروب الصليبية، التي فرضت على العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، من جانب أروبا، وتحت ستار ديني، مع باعث استعماري مجلي لروح العزة ورفض الظلم بين المسلمين، اللذين هما من تعاليم الإسلام القيمة. وهذه وقفة يسيرة عند الأشعار ذات محور العزة ومحاورها الشعرية، التي تبين وجود روح العزة في منشديها المسلمين، على أساس المنهج الوصفي التحليلي، مستهدفة خلق روح العزة وتقوية روح رفض الظلم وتثبيتها في العالم الإسلامي الذي يعاني حالياً من استيلاء العدوّ الغربي على أفلاذ كبده. وقد أسفر البحث ببيان موجز عن الأهداف الاستعمارية للحروب الصليبية، مما أعقب تصدّي المسلمين، مدافعين عن عزّتهم بأساليب مختلفة، منها إنشاد أشعار كهذه التي سنعرضها، وانصرف كذلك إلى تبيين العزة من منظار الغرب الاستعماري والدين الإسلامي.

الكلمات الرئيسة

الحروب الصليبية، العزة، الشعر الحماسي.

---

* الكاتب المسؤول الهاتف: ٠٩١١٨٩٨٥٩٤٣ Email: zahra_amiri110@yahoo.com

١. مقدمة

إن فكرة العزة وإباء الضيم من مبادئ الدين الإسلامي، ونحلة هذا الدين الكريم للإنسانية، ولقد رافقت الأمة الإسلامية منذ بداية شروق الإسلام، ولها صداها الواسع في خواطر أبناء الحضارة الإسلامية، وتبرز هذه الأصداء جلية في آثارهم الفكرية وخاصة أدبهم، ومنها الآثار الأدبية والأشعار الحماسية لفترة الحروب الصليبية التي فرضتها أوروبا على العالم الإسلامي. وترجع أهمية الموضوع هذا إلى وضع العالم الإسلامي في عصرنا الراهن. ففي حين يعاني هو من هجمات الغرب ضده بمختلف أشكالها ويحس بالذلة من سيطرة الغرب على أفلاذ كبده، طرْح قضية العزة والبحث عنها في تراثنا الأدبي، يوقظ مشاعر العزّ والفخر بماضينا الباهر في الأمة الإسلامية المضطهدة ويبعث على الانطلاق نحو التصدي للظلم ورفض احتماله. ثم إن إنشاد أشعار ذات محور العزة من أقصى نقطة شرقية في العالم الإسلامي آنذاك، وهي خراسان، وفي أدنى نقطة غربية وهي شمال إفريقيا ومصر، يوحي بوجود نوع من الاتحاد الفكري بين الأمة الإسلامية آنذاك، وهي قضية يحتاج إليها العالم الإسلامي حالياً احتياجاً بالغاً. والقرآن الكريم، ثم تراثنا الحديثي من نهج البلاغة ثم الصحيفة السجادية وغيرهما، هي أولى مصادر طرحت هذه الفكرة وعلّمها متبنّيها، وردّدها أبناء الإسلام الذين تعلّموا منه درس العزة ورفض الظلم. مما يجدر بالذكر أنّ نظرة هذا البحث إلى هذه القضية ـ كما توضّح وسيتوضّح فيما بعد ـ تختلف عن نظرة الحكام المستبدّين العرب، أمثال صدام والقذافي، الذين سمّوا حرب الغرب ضدّهم بالحروب الصليبية. فهذا البحث كما سنرى، ينظر إليها من منظار تعاليم مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

والبحث عن هذه الفكرة في تراثنا الغزير وخاصة الأدبي منه، هو من البحوث الحديثة في عصرنا الحاضر. اليوم وإن بدأت نشاطات جديدة في العالم الإسلامي مستهدفة بعث روح العزة، إلا أنه لم تعالَج قضية العزة ومحاورها في المصادر الإسلامية الأولى كالقرآن ونهج البلاغة، وفي أدب العالم الإسلامي، الذي بإمكانه أن يوقظ أحاسيس الفخر بالماضي اللامع في الأمة الإسلامية الخاضعة لاضطهاد الغرب الاستعماري، وباستطاعة هذا البحث أن يبدأ بالخطو في هذا المسير الهام.

يجدر بالذكر أن هناك كتب عالجت قضية أدب الحروب الصليبية بنظرة مختلفة عن نظرة هذا البحث، فاهتمّت بجمع الأدب الذي قيل في الحروب الصليبية ودراستها فنياً، مثل كتاب «شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام» للهرفي، و«بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» لعبد الجليل حسن، والبحث هذا قد اهتمّ بدراسة محاور شعرية عن هذه الحروب، تتصاعد منها شميم العزة؛ بعد أن بيّن سبب ثورتهم العارمة ضدّ هجوم الصليبيين ـ ومنها الثورة الشعرية ـ التي هي من أهداف الصليبيين الاستعمارية واستهدافهم مقدّسات المسلمين. ثمّ درس تجذّر مفهوم العزة والتّصدي للظلم في وجودهم، الشيء الذي رسّخه الدين الإسلامي فيهم؛ فالمهم هنا دراسة روح العزّة ورفض الظلم في هذه الأشعار؛ وكذلك عالج بيان هذا المفهوم في كلتا الثقافتين: الغرب الاستعماري، بمعنى الغطرسة، والسيطرة على الشعوب وعقولهم وأموالهم وثقافتهم، والدين الإسلامي بمعان منها التصدي للظلم ورفض احتماله، الشيء الذي اهتمّ البحث بالتحرّي عن صداه في أشعار الحروب الصليبية، على أساس المنهج الوصفي والتحليلي. ولابدّ أن نشير إلى بعض المفاهيم قبل الخوض في صلب الموضوع.

٢. الحروب الصليبية؛ أسبابها وأهدافها

الحروب الصليبية هي هجوم مسلح تكوّن في أوروبا ضد العالم الإسلامي طيلة القرنين السادس والسابع الهجريين، ولها جذور في أوضاع أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في القرن الحادي عشر للميلاد، وأهداف سياسية اقتصادية، وقد كان الدين ستاراً لتحقيق أهدافها. إنّ هذه الحروب تحمل معها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية مع ستارٍ من العامل الديني وهو دور البابوية في اشتعالها؛ وكلها «ركزت في الدرجة الأولى على جعل السبب الديني ثانوياً، لا أساساً جوهرياً وعاملاً رئيسياً في هذه الحروب» (عاشور، ١٩٨٨، ص٧٧). ومهما كان هذا الاختلاف، فإن الأسباب التي حملت الغرب الأوروبي على هذه الحروب، كلها ترجع إلى غرضين أساسيين: «١. ضغينة الغرب الأوروبي ضد العالم الإسلامي، ٢. دافع الطمع والكسب بمختلف أشكاله» (العروسي المطوي، ١٩٥٤، ص١٥).

وذكر المؤرّخون المحدثون أنّ الملوك الأوروبيين وقادتهم، شاركوا في الحروب الصليبية بدافع خدمة مصالحهم السياسية وضغط الكنيسة «وتهديد من لم ينفذ أمر الكنيسة بإصدار قرارات من حرمان النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا» (عاشور، ١٩٨٨، ص٨١). ومنها تنافس

الأوروبيين لإظهار قدرتهم «خاصّة أنّ كثيراً من الاقطاعيين الذين كانوا قوّاد هؤلاء الأمراء، كانوا يتمنّون لقب «ملك أورشليم» الذي أصبح أكبر الألقاب بعد البابوية» (جروسية، ١٣٨٤، ص٨). هذا، وقد اعترف الكتّاب الغربيون بالحياة الآمنة المطمئنة للنصارى الذين عاشوا في كنف الإسلام، وبثبات أوضاع الكنائس...

ويعتقد هانس ابرهارد مايز: إنّ الحقيقة أنّ في القرن الثالث عشر، استُغلّ غفران الذنوب، لصالح الأهداف السياسية... أي إنهم ـ أي قادة الحروب ـ كانوا يأملون أن يعثروا من جمهرة الحضار الذين كان أكثرهم أميين، على أهدافهم السياسية (انظر: ابر هارد مايز، ١٣٧١، ص٤١ و٤٣).

أما عن الأسباب الاجتماعية لهذه الحروب، فإنّ قسماً كبيراً من المجتمع الأوروبي، يعيش في ضيق الحياة، فكان الحرب لتحري إقطاعات أخرى لهم (انظر: عمران، ١٩٩٩، ص١٩ و٢٠؛ جروسية، ١٣٨٤، ص١٠؛ رنيسمان، ١٣٨٠، ص١٥ إلى ١٥٣ و١٢١ و١٢٢).

وكثيرون من هم ذهبوا إلى الحروب الصليبية للتخلص من الاقتدار الاجتماعي للأسرة، والوصول إلى حرية أكثر. وكذلك حرص الأمراء للحصول على الغنائم والغنى والارتقاء إلى مناصب أرفع من التي كانوا عليها في بلادهم، جعلت الأمراء الأوروبيين ينظرون إلى الحروب الصليبية كمفرّ لهم من هذه الأزمات، فإننا نرى بينهم رغبة إلى النهب والغارة. (ابرهارد مايز، ١٣٧١، ص٢٨ و٢٩) فقد أشار البابا إلى ذلك في خطبة ألقاه أمام آلاف من الناس محرّضاً إياهم: «ذلك بأنّ الأراضي التي تسكنونها الآن... ضيقة لا تتّسع لسكانها الكثيرين، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً وتتحاربون. طهّروا قلوبكم إذن من الحقد، واتّخذوا طريقكم إلى الضّريح المقدّس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملّكوها أنتم. إن القدس أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج...» (عمران، ١٩٩٩، ص٢).

أما عن الأسباب التجارية، فإنّ تجار أوروبا حرصوا على إيجاد موانئ تجارية لهم في بلاد الشرق، فبذل هؤلاء التّجار لهذه الحروب أموال طائلة. ومن الدلائل البارزة على أهدافهم التجارية أنهم لما احتلّوا مدينة دمياط في الحملة الخامسة، واقترح عليهم الملك الكامل إعطاء بيت المقدس ومعظم مدن فلسطين إزاء تنازلهم عن دمياط ومصر، ما قبلوا ذلك، ولو كان هدفهم دينياً فحسب، لم يرفضوا هذا الاقتراح.

وإن خطبة البابا التي ألقاه في مجمع كلرمون تعدّ تلخيصاً لكلّ ما ذكرناه، فله عبارات مثل: «ليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بغناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتّخذوا محجّة القبر المقدس، واملكوها أنتم، فهذه الأرض كما تقول التوراة تفيض عسلاً ولبناً» (العروسي المطوي، ١٩٥٤، ص١٧).

يتبيّن مما سبق، أنّ الحروب الصليبية ليست في حقيقة أمرها سوى حرب عدوانية استعمارية شنّها الغرب الأوروبي على العالم الإسلامي، بهدف احتلال بلادهم وتأسيس إمارات داخله، والسيطرة على ثرواته الغزيرة التي لا تحصى، والاستيلاء على تجارة الشرق بتملّك موانئهم، كلّ ذلك تحت شعار الصليب وتخليص بيت المقدس. وقد اعترف كثير من مؤرخي أوروبا ومفكريها المحدثين خاصة الذين اشتهروا بتعصّبهم، والذين نظروا إلى الحركة الصليبية من وجهة نظر غربية بحتة ضمناً أو صراحة، بحقيقة تلك الاتجاهات. ومن هؤلاء المؤرّخ الفرنسي «رينية جروسية» الذي قال في كتابه «خلاصة التاريخ»: «إن الحروب الصليبية أدّت إلى أول توسّع استعماري للغرب المسيحي في الشرق الأوسط». أما الأستاذ «برنارد لويس»، فقد أوضح في كتابه «العرب في التاريخ» أن: «تلك الحروب كانت أول محاولة مبكّرة في التوسّع الاستعماري للغرب، تحرّكها اعتبارات مادية دنيوية ويغفلها الدين كعامل نفساني». ويتحدث المؤرخ هنري وليم كارس ديفز في كتابه «أوروبا في العصور الوسطي» عن الحروب الصليبية تحت عنوان: «الاستعمار الأوروبي»، ويزيد ديفز الأمر وضوحاً فيقول: «وكثيراً ما كان يُنتحل الباعث الديني بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب» (انظر: نيسم يوسف، ١٩٨١، ص٩٨).

تعريف العزّة: كلمة «العزّة» بمعني الغلبة والشدة والقوة، والعزيز من أسماءالله تعالي، وهو «المنيع الذي لاينال ولايُغالَب ولايعجزه شيء ولا مثلَ له».

٣. ماهية العزّة

تنطلق وجهة نظر كل من الغرب (الفلاسفة الغربيين) والدين الإسلامي في تحديد ماهية قضية العزّة، من رؤيتهما المادية الاستبدادية أو التوحيدية.

٣-١- في منطق الفلاسفة الغربيين:

للغرب في مجال العلاقات الدولية منظّرون، لآرائهم أثرات بعيدة في تكوين حياتهم السياسية، وتحديد مظاهر قدرتهم وعزّتهم. فقد كانت نظرة صموئيل هنتنغتون توجيه لسياسات المفكرين الأمريكيين في السنين البدائية للقرن الحادي والعشرون. و«فرانسيس فوكوياما» ـ من أهمّ الفلاسفة والمفكرين السياسين الأمريكيين المعاصرين ـ كان له أبعد الأثر في السياسات الأمريكية. وهو قد صوّر في كتابه المشهور «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» مظاهر قدرة الغرب وعزته، ويعتبر الغرب في عصره الراهن، تجسّم القدرة والعزّة الحقيقة وهو الآن في ذروتهما.

فوكوياما يعتقد في هذا الكتاب أن التاريخ قد انتهى مع انتصار الغرب ليكوّن ماهية حياة الناس السياسية والاقتصادية والثقافية، ومن الآن فصاعداً سيستمرّ التاريخ في حركته في إطار سيادة الليبرالية الغربية على العالم. وكانت هي الوحيدة التي أتت للجماهير في الغرب بالحرّيّة والسّعة المادية ما لا نظير لها مدى التاريخ. والغربيّون يمتلكون الآن ثمانين بالمائة من كلّ ثروات العالم ـ وهم يعدّون هذه الثروة من مظاهر قدرتهم وعزّهم، ويستخدمونها للاستيلاء على شعوب العالم ـ وأمريكا هي قائدة هذه الليبرالية العالمية بزعمه.

والدليل على فشل نظرية فوكوياما، تصاعد أفكار إسلامية في الشرق الأوسط، ونجاح الحركات اليسارية في أمريكا الجنوبية. وتخلّى فوكوياما صراحة عن ولائه لأفكار المحافظين الجدد، بعد اعتقاده بأن على الولايات المتحدة أن تستخدم القوة في ترويجها للديمقراطية ـ وهذه القوة هي مظهر العزة عندهم ـ نافياً أن تكون الحرب العسكريه هي الإجابة الصحيحة على الحرب على الإرهاب، واعتقد أن المعركة الحقيقية هي معركة كسب عقول وقلوب المسلمين. وهذا مظهر آخر من مظاهر القدرة والعزّة عندهم، يتمّ عن طريق الاستيلاء على وسائل الإعلام.

هذا، وإن كان فوكوياما يرى اقتدار الغرب وعزته في ديمقراطيته، وفي الليبرالية، والحرية الغربية، والرأسمالية، والرفاهية في البلاد الغربية، وفي القوّة العسكرية، والتفوّق في معركة الاستيلاء على القلوب والعقول في العالم، بهدف السيطرة على أسواقهم ومنابعهم الطبيعية وأمثالها، إلاّ أنه لم يفت عن نظرة الاقتدار العديم النظير للثقافة الإسلامية، ولم يستنكف عن الاعتراف بعدم قبولها وقبول معتنقيها الفشل، كما نراه يعتقد أنه هناك شيئان جعلا الشيعة غير قابلة للفشل دائماً، وهما: «ثقافة الانتظار» و«ولاية الفقيه».

٣-٢- من منظار الدين الإسلامي:

إنّ النظرة إلى قضيّة العزّة في الثقافة الإسلامية، تنطلق من الرؤية التوحيدية. فقد ذهبت الآيات والروايات إلى أنّ العزّة المطلقة منحصرة في الله وحده. ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى: ﴿فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩). وقال الإمام علي عليه السلام: «كلُّ عزيز غيره ذليل» (نهج البلاغة، الخطبة ٦٥) فالعزّة المطلقة له سبحانه، وتحيط من اختصّه الله بعزّته، وهم الرسول والمؤمنون به وبالله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) وليس لأحدٍ من عباده عزّ إلا به وبعبادته سبحانه. وكلُّ الجبابرة خاضعون أمام عزّته وقدرته المطلقة؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً أمام قدرته.

وأهل البيت عليهم السلام الذين هم القمّة في عبوديته، اعتبروا عبوديته سبحانه ذروة العزّ للإنسان، وقال الإمام علي عليه السلام: «إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً...» (المجلسي، ١٩٨٣، ج٧٤، ص٤٠٠).

والعزّة من منظار الثقافة الإسلامية تكتسب بأمور، مصدرها التوحيد، ومنها رفض الذلّ وعدم قبول الظلم والتصدي للجبابرة وتتمثّل ذروتها في الإمام الحسين عليه السلام، وله الكلام المشهور: «موت في عزّ، خيرٌ من حياة في ذلّ». وقد اعترف المفكرون الغربيون بعظمة فكرة العزّة في الثقافة الإسلامية، وأشادوا ببطله العظيم، ورمز الإباء والعزّة ورفض الضيم، الإمام الحسين عليه السلام.

وأخيراً، فقد ورث أبناء الإسلام عنه العزّة والإباء ورفض الضيم والتّصدي له، ويتجلّى ذلك بوضوح في آثارهم وأدبهم، وتثقّف شعراء الحروب الصليبية المسلمين بهذه الثقافة القيّمة، وانعكس ذلك في أشعارهم، نتحدّث عنها في هذا المجال. فقد تصدّى المسلمون للصليبيين المحتلين، وخاصة الشعراء منهم، المتثقّفون بثقافة العزّة الإسلامية، الممتلكون روح الإباء السامية، وواكبت أشعار هؤلاء الشعراء هذه الحروب وجهادهم فيها منذ بدايتها حتى نهايتها. وكان كثير من شعرهم في هذا المجال، شعراً مقاوماً حاثّاً مدافعاً عن الدين وعن عزّة المسلمين وكرامتهم، ومتحمّساً يدعو إلى الجهاد، ويهتمّ بالتثوير، ويشيع روح المقاومة في النفوس، ولم يكن شعراً باكياً مكتفياً بشرح الأحداث المحزنة والمشاعر المؤلمة.

٤. صدى العزة في موضوعات هذه الأشعار

تدلّ المحاور الشعرية ـ التي جعلوا التحدث عنها بعنايتهم ـ على انطباع نفوس هؤلاء الشعراء

بالعزّة الإسلامية، فتموج أصداؤها في أشعارهم الحماسية الجهادية. وفيما يلي نستعرض عدّة محاور استوعبتها أشعارهم هذه، ومظاهر العزّة ومصاديقها التي نستشفّها من هذه الأشعار:

٤-١. الفرح بعودة الاطمئنان إلى الأمة

إظهار الفرح من قبل شعراء الحروب الصليبية بعودة السرور والرجاء والاطمئنان إلى الأمة الإسلامية باسترداد البلدان المحتلة من الصليبيين وردّها إلى حضن الأمة الإسلامية بعد خيبتهم عنها، يذكرنا بالعزّة التي انطبعت نفوس المسلمين بها آنذاك. فإن التهلّل بالنسبة لاسترجاع المدن إلى حضن الأمة الإسلامية وعودة الأمن والراحة إليها، من قبل الشاعر المسلم، لا يتأتّى إلا بعد ترسيخ روح العزّة ورفض الظلم في ضمير الشاعر.

فهذا ابن القيسراني يمدح الملك نور الدين بأنه أصلح صدع الدهر بجهاده وحقب فرس الدهر بعد امتناعه، وفتح باب الحظ أمام الناس بعد أن أغلق دونهم من جرّاء معاداة الصليبيين، ويسّر لهم نيل أمانيهم بعد أن خابوا من وصولها:

سَكنْتَ شعبَ الدهر بعد تَخَمُّطٍ ... وألَنْتَ من عِطفَيه بعد شِماسِ
وفتحتَ بابَ الحظّ بعدَ رِتاجِهِ ... وأذِنْتَ للأطماعِ بعدَ اليأسِ
حتى مَنَحْتَ الخلقَ كلَّ مَسَرَّةٍ ... فالناس في عُرسٍ من الأعراسِ[١]

(المقدسي، دون تا، ج١، ص٢٠)

وفي قصيدة له في العماد الزنكي يهنّئه بفتح الرها ـ من البلاد الشامية ـ ويعبّر عن إعادته الاطمئنان إلى القلوب الخائفة، قائلاً:

أراحَ قلوباً طِرنَ عن وُكناتِها ... عليها قَوافٍ كلُّ صدرٍ فؤادُهُ

(المقدسي، دون تا، ج١، ص٣٨)

وأنشد أبوالحسن علي بن محمد السخاوي، مادحاً فيه صلاح الدين بإعادته الأمن إلى البيت الحرام، فيأتيه الناس آمنين بعد محو معالم سبله، وتعذّر قصده لوجود الخوف فيه:

---

١. الشعب: الصدع/ التخبّط: التكبّر/ الشماس: الإباء/ الرتاج: إغلاق الباب

وبــه أتــى البيــتَ الحــرامَ وُفــودُه / مِــن كــلّ فَــجٍّ آمــنينَ المُــرَّدا
مــن بعــد مــا دُرِســت مَعــالمُ سُــبلِهِ / دهــراً، وعَــزّ لخوفــه أن يُقصَــدا

(المقدسي، دون تا، ج٢، ص١٠٧)

وفي البيت إشارة إلى تهديد الصليبيين قوافلَ الحجاج في طريقهم إلى الحجاز.

٤-٢- إعادة المعالم الإسلامية إلى البلاد الإسلامية

من الأمور التي أحدثتها فتوح البلاد الإسلامية واستردادها من المحتلين بيد أبطال الحروب الصليبية المسلمين، الفرح بإعادة الإسلام وآثاره إليها ورفع راياته فيها ومحو آثار الكفر بعد حلّ الكفر فيها، ومحو معالم الإسلام منها، وذلك مثل: رفع صوت الأذان بدل نواقيس الكنائس، وتكسّر الصلبان، وعود الهدي والإيمان والتوحيد؛ ووجود هذه المعاني في أشعارهم يشير إلي وجود الحمية الدينية في الشعراء واعتزازهم بدينهم.

وذلك كانتساب ابن سناء الملك إقامة التوحيد بدل التثليث إلى صلاح الدين مادحاً إياه:

أقَمــتَ بهــا التوحيــدَ لله وحــدَه / وأنسـيتَ فيهـا الـروحَ والأبَ والإبنـا
وقد أصبح الإسلامُ والكفرُ كلّما / بنيتَ لذا رُكناً هَدَمتَ لذا رُكنا

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ص٧٥٨)

تشير مضامين البيت إلى وجود الحمية الدينية، وروح رفض الظلم في الشاعر.

والرشيد بن بدر النابلسي سمّي فاتح بيت المقدس بهجة القدس، إذ نشر راية الإسلام فيها بعد طيّه، وهي رمز الوحدة ومعلم الاهتداء، ونورَ المسجد الأقصى لمَا رفع به الآيات بعد أن رفع فيها الصليب، ورفع صوت الأذان الذي تقشعرّ له الذّرى بدل صوت الناقوس:

يــا نــورَ مســجده الأقصــى وقــد رُفِعَــت / بعــد الصــليب بــه الآيــاتُ والسُــوَرُ
شــتّانِ مــا بــينَ نــاقوسٍ يُــدانُ بــه / وبــينَ ذي مَنطــقٍ يُصــغِي لــه الحجــرُ
الله أكــبر صــوتٌ تَقشَــعِرٌّ لــه / شُــمُّ الــذُّرى وتكــاد الأرضُ تَنفَطِــرُ

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج٢، ص١١٩)

ويتّضح لنا في البيت مدى عظمة المسجد الأقصى لدى المسلمين ومدى سرورهم باستردادها من المحتلين.

ولابن القيسراني في مديح نور الدين، معبّراً عن إحلاله الأذان بدل النواقيس:

رُعـــتَ نـــواميسَ نواقيسِهـــا بجَلبـــــة الآذان وقـــــتَ الأذان

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج١، ص٢٠)

وتكرار مصطلحات دينية إسلامية، يدلّ على تعظيم هؤلاء الشعراء الشعائر الإسلامية آنذاك وتعلّقهم بها.

٤-٣- التغنّي بما حلّ بملوك الصليبيين من القتل والأسر

من المعاني التي اهتمّ شعراء الحروب الصليبية بذكرها في شعرهم، ذكر ما ألحق ملوك المسلمين وجيوشهم بملوك الصليبيين من القتل والأسر والهوان، فقد كان تصوير قتلهم أو أسرهم في الشعر يقوّي معنويات المسلمين في جهادهم مع عدوّهم الصليبي. وممّن سمّاهم الشعراء في أشعارهم من ملوك الصليبيين المقتولين أو الأسراء: البرنس، وجوسلين، وأرناط، ومُرّي، وهنفري، والكند، وبادويل، وقومص، والشاني، والباروني، وغيرهم. من ذلك ما يصفه ابن سناء الملك في قصيدة له، من أسر ملوك الصليبيين: بادويل والكند واليسكند وغيرهم، وتسجينهم، وبكائهم، ولعنهم علي أنفسهم:

وأضحى أسيراً بادويلُ وغيرُه قرونُ ملوكٍ كم أبادوا لهم قرنا
أسارَى جَبارَى لا يُرَجّـــونَ فِديـــــة ولا يَأملون الدهرَ فَكاً ولا أمنا
وهل زادَهم بالسجن ضيقاً عليهُم وقد جَعلَ الأرضُ الفضاءَ لهم سِجنا
بكى الكندُ واليَسكَند لا وحشةً لهم ولكن على نفسَيهما أسبَلا الجَفنا
غدا بادويلٌ وهوَ يَلعَنُ نفسَهُ وحَـــقٌ لتلـــك النفـــس أن تَربَـــح اللَعـــنا

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج١، ص٧٦)

وإنّ وحشتهم في الأسر وفزعهم منه، وعدم تثبّتهم في موقفهم ـ كما أشير إليه في الأبيات المذكورة في وصف حال ملوك الصليبيين بعد الأسر ـ إضافة إلى سعة أسر الصليبيين بيد المسلمين وقتلهم، دون المسلمين، تدلّنا على عدم تحمسّهم في مقاتلة المسلمين؛ وهذا علاوة على الحجج الأخرى في هذا المجال ـ يسفر عن عدوانية هجومهم ودافعهم الاستعماري فيه ـ

وأنهم لم تكن لهم حجّة تبرّر هجومهم على البلاد الإسلامية، فلم يكن لهم حقّ في تلك البلدان المحتلة، وفي الإمارات الصليبية التي أسّسوها؛ ولو لم يكن كذلك، لكانوا متحمّسين في استرداد حقّهم. وهذا أوضح دليل على كثرة انهزاماتهم من المسلمين وانسحاباتهم.

ويبيّن كمال الدين الشهرزوري في أبياته أنهم أصبحت رؤوسهم تسجد للسيوف؛ لأنّها أبت السجود للّه، وأنّ رؤوسهم غمود تلك السيوف، لِما تدخل فيه من هذه السيوف، لمّا سُلّت السيوف من أغمادها:

غـــدا ملـــوك الـــروم في دولتـــه ... وهـــم علـــى رُغمهـــمُ عَبيـــدها
لمّـــا أبَـــت هامـــاتُهم سُـــجودها ... للّه، أضـــحى للظُبَـــى سُـــجودُها
إن فارقَـــت سُـــيوفُه غُمودهـــا ... فـــإنّ هامـــاتِهِمُ غُمودُهـــا

(المقدسي، دون تا، ج١، ص١٤٨)

٤-٤- استنهاض همم أمراء المسلمين للجهاد

ليس يخفى علينا التأثير السحريّ والقدرة الاستنهاضية للشعر المثوّر المهيّج، ولكلماته ذات ثورة عارمة، ولموسيقاه المطنطن، في الدبيب في القلوب وبعث الحميّة فيها، وهذا ممّا استعان به شعراء الحروب الصليبية، وساعدهم، وهو من أسمى المعاني في هذه الأشعار. وكان طلائع بن رزيك، الوزير الفاطمي، أكثرهم ولوعاً بهذا المعنى، ونلمس في مراسلاته الشعرية مع أسامة بن منقذ، في بلاط الزنكيين، شدّة حرصه على تحريض نور الدين على جهادهم عن طريق صديقه أسامة.

وكان العماد ممّن نجد في أشعاره الحثّ على جهادهم، فقال في قصيدة في مديح نور الدين حاثّاً إياه على غزو الفرنج وتطهير القدس من رجسهم، والانقضاض عليهم كوثوب الصقر الشهوان للحم على اللحم:

أُغـزُ الفـرنجَ فهـذا وقـتُ غَـزوِهمُ ... واحطِـم جُمـوعَهم بالـذابِلِ الحُطُـمِ
وطهِّر القدسَ من رِجس الصليب وثُب ... علـى البُغـاة وُثـوبَ الأجـدَلِ القَطَـمِ
فملـك مصـرٍ وملـك الشـام قـد نُظِمـا ... في عِقـد عـزٍّ مـن الإسـلام مُنـتظَمِ[1]

(المقدسي، دون تا، ج١، ص١٧٥)

١. الذابل: الدقيق، صفة للرمح/ الحطم: الأكول الذي يحطم كلّ شيء أكلاً/ الأجدل: الصقر الشهوان للحم

وهذا ابن النبيه المصري قد حاول تحريك همّة «الأشرف موسى»، ونفسه تشغلها اللّهفة والثورة والغضب للدين، ومن اضطهاد الفرنج البغاة، والتأسّف من التثاقل، طالباً منه تجهيز جيوشه لحفظ ثغور المسلمين من عبث الفرنج بها، ويحرّض المسلمين على إظهار حميّتهم واستيقاظهم من نومهم:

يا حارسَ الدين لمّا نامَ حارسُه ... وناظماً شَملَهُ من بعد تَبديدِ
جَهّز جيوشَك إنّ الثغرَ قد عَبَثَت ... به الفرنجُ فأضحى غيرَ مَنضود
أيُدركون به أوتارَ قُدسِهمُ ... منكم، وذلك مُلك غيرُ مردودِ
يا لَلرّجال أناديكم لنازلةٍ ... تَستنزلُ الماءَ من صُمّ الجَلاميدِ
أين الحَميةُ هُبّوا من مَنامِكم ... إما لعاجلِ دنيا أو لمعبودِ

(ابن نبيه، ١٩٦٩، ص٣٧٤)

وقال أيضاً في الملك الأشرف موسى لمّا حضر إلى دمياط، مستهلاً قصيدته بتشجيعه على نشر لوائه للجهاد:

للذّةِ الجيشِ والأفراحِ أوقاتُ ... فَانشُر لِواءً له بالنصر عاداتُ
أمامَ جيشك أنّي سارَ أربَعةٌ ... نَصلٌ ونصرٌ وآراءٌ ورايَاتُ
وتحتَ غيلِ القَنا فُرسانُ معركةٍ ... لها ثُباتٌ وفي الهيجاء وَثباتُ

ثم يعود بعد أبيات إلى استنهاض عزيمة الملك للجهاد، مشبّهاً دمياط بطورٍ، والملك الأَشرف موسى بالنبي موسى عليه السلام، ونار الحرب بنارٍ آنسها، ويوم الجهاد بميقات موسى عليه السلام، حاثّاً إياه بتفريق ليل كفرهم بصباح الجهاد، داعياً إياه إلى تصويب سلاحه الذي شبّهه بعصا النبي موسى عليه السلام نحوهم ليتلقّف كلّ ما أفكوا، فإن حبالهم حيات:

دمياطُ طورٌ ونار الحرب موقَدَةٌ ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقاتُ
أنت الصباح فمَزِّق ليلَ كفرِهِمُ ... واصبِر ورابِط فللأعمالِ نيّاتُ
ألقِ العصا تَتلقَّف كلَّ ما أفكوا ... ولا تَخَف ما حِبالُ القوم حَيّاتُ
طَأهم بجيشك لا تَحفَل بكثرتهم ... فإنّهم لبُغاثِ الطير أقواتُ
أصَبتَهم بسِهامِ الرأي مِن حَلَبٍ ... وللمَكائدِ مِن بُعدٍ إصاباتُ

فطَهَّــر اللهُ ذاك الثغــر َمــن قَلَــحٍ أصــــابَه وانجَلــــــــَت تلــك الشَيِّــاتُ[١]

(ابن نبيه، ١٩٦٩، ص٣٥ و٣٥٨ و٣٥٩)

فإن ما تخلّل الأبيات من التشبيهات الرائعة والتعبيرات التي تنبض بالعاطفة من شأنها أن تلهب حماسة الملك وتذكي شعلة الثورة في نفسه، ثم جعله أمام مشاهدٍ ألحق فيها الملك أضرار فادحة بالمحتلين فهم بين قتلى وأسرى، فهذه التعبيرات أقوى ما يكون في التمكن من قلبه وجعله يندفع نحو دفع ظلم الصليبين.

٤-٥- الإشادة ببسالة جيوش المسلمين

هناك تصاوير فنية رشيقة وأوصاف عذبة بين أشعار الحروب الصليبية عن بطولة جيوشٍ للمسلمين تشغل أنفسهم الثورة والتحمّس لدينهم، وتزيّن أرواحهم روح العزّة في جهادهم للصليبيين. ومن أجملها ما أنشده الشاعر شهاب الدين الحلبي، لما فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم من الصليبيين بعد أن حاصرها خمسة وعشرين يوماً، فانبرى الشاعر لتهنئة الملك بقصيدة وأشاد فيها بجيوشه الشجعان بوصفٍ عذبٍ رشيق:

فصَبَّحتَّها بالجيش كالروض بَهجةً صَوارِمُه أنهارُه، والقنا الزَهرُ
وأبعدت، بل كالبحــر والبيــضُ موجُـــــهُ وجُردُ المَذاكي السُفن، والخوذ الدرُّ
وأغربتُ، بل كالليل عوجٌ سيوفَهُ أهِلَّتُه، والنُبلُ أنجُمُـــه الزُهـــرُ
وأخطاتُ، لا بل كالنهار فشَمسُهُ جيوشُك، والآمالُ راياتُك الصُفر
لُيوثٌ من الأتراك آجامُها القنا لها كل يومٍ في ذرا ظَفَرٍ ظُفرُ
فلا الريحُ تَسري بينهم لانسباكها عليهم ولا يَنهَلُّ مِن فوقهم قَطرُ
يُرى الموتُ مَعقوداً بهَدبِ ذِبالهم إذا ما رَماها القوسُ والنظرُ الشَزرُ
ففي كل سرجٍ غُصنُ بانٍ مُهَفهَفٌ وفي كل قوسٍ مَدَّ ساعده بَدرُ
إذا صَدَموا صُمَ الجبال تَزَلزَلت وأصبح سَهلاً تحت خيلهمُ الوَعرُ
ولو وَرَدت ماءَ الفرات خيولُهُ لقيل هنــا قد كـــان فيما مَضَـــى نهـــرُ[٢]

(رزق سليم، ١٩٦٥، ج٨، ص٦٢)

---

١. القلح: الوسخ والقذارة التي تعلو الأسنان

٢. الهَدب: طول الأغصان وتدلّيها/ النّبال: السهام/ الشَّزر: النظر بجانب العينين من إعراض وغضب/ المهفهف: الضامر البطن

إنّ تدرّج الشاعر في الإتيان بتشبيهات ناضرة عذبة، والتصعيد في إبداع تشبيهات، كل واحد منها أروع من السابق، بالإضراب عن تشبيه إلى آخر، بحيث كلما تتكامل صورة، تزيد روعة وجمالاً مما قبل، أكسب الأبيات جمالاً سحرياً يجعل شعور المخاطب يتصاعد، كلما تتكامل صورة بعد الأخرى وتستّع دائرة التشبيهات.

ثم إن مبالغات الشاعر حلوة في وصف شجاعة الأبطال، بحيث إنهم من الوحدة والانسباك ما لا تستطيع الريح أن تنفذ إلى ما بينهم ولا قطرات الماء، وموت أعدائهم مربوط بأذيال رماحهم لا تصيبهم إلا وتقتلهم، وتتزلزل الجبال الصعبة من خوفهم، حتى إنّ خيولهم من القوة ما تجعل الأنهار تغوص ماؤها في الأرض، تُكسب الأبيات سلطاناً عاطفياً يسيطر على كل شعور القارئ، ويجعل الأبيات من أروع ما أنشدت في أبطال الحروب الصليبية.

فلما قدمت الفرنج الديار المصرية على زمن وزارة طلائع عليها، وتصدّى لهم طلائع بفرسانه، مدح عمارة اليمني أبطال هذه الحروب وأشاد بشجاعتهم:

أطفأتَ جَمرَتَها بإخوتك الأولى ... يَتَسَنَّمون غَوارِبَ الأهوالِ
لم أدرِ والتشبيهُ يَقصُرُ عنهُمُ ... أغُيوثُ نُزلٍ أم لُيوثُ نِزالِ
طالت بأيديهم قِصارُ صَوارمٍ ... باتت بها الأعمارُ غيرَ طِوالِ[1]

(عمارة اليمني، ١٨٩٧، ص٧٥)

وزاد من جمال هذه التشبيهات ما استخدم فيه من الجناس والطباق، فقد تجانس الشاعر بين: غيوث وليوث، ونزل ونزال، وطابق بين قصار وطوال، والإطفاء والجمرة.

ووصف صفي الدين الحلّي فرسان الملك المنصور، لمّا فتح حصناً من الصليبيين، وزاد المبالغةُ والتشبيهُ البديع من جمال وصفه، فهم من الشجاعة بحيث كأنهم لبسوا دروعاً من القلوب الشُجاعة فوق أجسامهم:

حتى رَميتَ حُصونَها بكتائبٍ ... شُهبٍ، وقُدتَ لها الجيادَ القُوَّدا
بقَساورٍ قلَّت عَديداً في اللقا ... ومن الشجاعة أن تَقِلَّ عديدا
مِن فتيةٍ كسروا غمودَ سيوفهم ... واستَبدَلوا قُلَلَ الرؤوس غُمودا

١. تسنّم الناقة: ركب سنامها/ النُّزل: ما هُيِّئَ للضيف/ الغوارب: الكواهل

رَفضوا الدروعَ عن الجسوم وأسبَغوا فوقَ الجسوم من القلوب دُروعا
لو لم يُوَرِّد خدَّها منهم حيا جعلوا الدماءَ لخدّها توريدا[1]

(الحلّي، دون تا، ص١١٠)

ولاشك أن شجاعتهم هذه، بحيث إنهم قليلوا العدد في لقاء أعدائهم الصليبيين ـ كما عبّر الشاعر عن ذلك ـ تنطلق من تحمسّ ديني تغلي في باطنهم وتستثير حماستهم للبطش بالمحتل.

٤-٦- التنويه بحماية الملك المجاهد للصليبيين عن الإسلام

من المعاني التي تظهر في مدائح شعراء الحروب الصليبية لأبطال هذه الحروب المجاهدين، مدح هؤلاء الملوك المجاهدين بأن محاربتهم للصليبيين، ليست إلا من أجل حماية الإسلام والدفاع عنه، وليست للدفاع عن وطهنم بأنه جزء من الوطن العربي، وليست للعصبيّة العربية، بل حميّة دينية تدفع نحو الدفاع عن الإسلام وشعائره ومعالمه وحمايته من العدو الصليبي.

وقال ابن عنين في هذا المعنى مادحاً الملك المعظم عيسى:

ففرّجَ ضيقَ القوم عنّا طِعانُه وشَتَّتَ شملَ الكفرِ عنا ضِرابُه
وأصبح وجهُ الدين بعدَ عُبُوسه طليقاً، ولولاه لطال اكتئابُه
جهادٌ لوجه الله في نَصر دينه وفي طاعة الله العزيز احتسابُهُ
حَمَيتَ حِمَى الإسلام فالدينُ آمِنٌ تُذادُ أقاصيه يُخشَى ويُخشَى جنابُهُ

(ابن عنين، دون تا، ص٢١)

فالذي دفع الشاعر نحو التغني بهذه الأبيات، الفرح والارتياح المنبعثين من روح العزّة، اللذان أحسّ الشاعر بهما، واللذان دفعا الشاعر إلى مدح الملك باهتمامه بجهاد المحتلين.

وقال أيضاً في الملك المعظم عيسى مادحاً إياه بدفاعه عن حوزة الإسلام، وأبياته من أسمى الأبيات في هذا المعنى:

لولا دفاعُك بالصوارم والقنا عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديارُ مصرٍ لو وَنَت عزماتُه عن نصرها لتَمكنت فيها العدى
ولأمست البيضُ الحرائرُ أسهُماً فيها سبايا، والموالي أعبُدا

١. الكتيبة الشهباء: العظيمة الكثيرة السلاح/ القود: ج أقود: وهو من الخيل الذليل المنقاد

ولأصـــحبت خيـــلُ الفـــرنج مُغـــيرةً تُجتـــاب مـــا بـــين البقيـــع إلى كـــدَى
وبثغـــر دميـــاطٍ فكـــم مـــن بَيعـــةٍ عُبِـد الصـليبُ بهـا وكانـت مسـجدا
أجليـتَ ليـلَ الكفـر عنـها فـانطوى وأنـرتَ في عرصاتهـا فجـرَ الهُـدَى[1]

(ابن عنين، دون تا، ص١٦)

فالذي كان يبعث قلق الشاعر واستياءه، لو لم يكن دفاع الملك عن حمى الإسلام، لتمكن الأعداء من مصر واحتلالها، وسبي النساء والرجال، وتحوّل المساجد إلى الكنائس، والتوحيد إلى الكفر، وهذا القلق خير دليل على الحمية والعزّة ورفض الظلم في ضمير الشاعر.

كما يتّضح من الأبيات، لاشك أن دور الشعراء وأدبهم الذي كان يستثير عواطف الأبطال ويشجّعهم ويقوّي عزائمهم في استمرار الجهاد، ويقدّر مجاهداتهم، ليس أقلّ في الأهمية من دور هؤلاء المجاهدين، في طرد المحتلّين نهائياً عن البلاد الإسلامية.

٤-٧- هجاء المتقاعسين عن الجهاد

وهذا المحور ممّا قصّر فيه شعراء الحروب الصليبية، وحبّذا لو كانوا قد اهتمّوا بهذا الموضوع في أشعارهم أكثر ممّا أنشدوه. فقد كان يسبّب إيقاظ أمراء المسلمين من نومهم، ويؤثر في إحجامهم عن التقاعس في الجهاد، إلاّ أننا لا نجد أبياتاً في هذا الموضوع إلاّ القليل النادر، ولعلّ سببه روح الملق التي سادت كثيراً من شعراء العصر. وهذا القصور من قبل شعراء الحروب الصليبية قصور غير قابل للاغماض عنه.

إلا أنه هناك قصيدة وهي لقدرتها التوبيخية العظيمة، تملأ قسماً من هذا الخلأ العميق، وهي قصيدة الأبيوردي، أنشدها لمّا أغار الصليبيون على بيت المقدس، وقتلوا فيها من المسلمين ما قتلوا، وشملوا المدينة بالدمار والخراب، فلم يكن من الأمة الإسلامية ردود فعل تناسب هذه الفادحة، فأنشد الأبيوردي قصيدة حارّة يدعوهم فيها إلى الجهاد واستنقاذ الأمة الإسلامية، متنكراً على المتقاعسين عن جهادهم بهذه الأبيات القارعة:

أرى أمـــتي لا يُشـــرعون إلى العـــدَى رمـــاحَهُمُ والـــدينُ واهـــي الـــدعائم

ثم يجعل يحرّك مشاعرهم ويستثير غيرتهم بانتساب الخوف وفقدان الغيرة والرضى

---

١. البقيع: مقبرة معرفة بالمدينة/ الكدى: موضع بأسفل مكة

بالذل إليهم، مستنكراً ذلك عليهم:

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازِمِ
أتَرضَى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويُغضِي على ذُلٍّ كماةُ الأعاجِمِ

ثم عن طريق إشارة الشعور الديني أو الغيرة بالمحارم آسفاً من فقدان كليهما فيهم:

فيلتهم إذ لم يَذودوا حميةً عن الدين ضَنّوا غيرةً بالمحارم

ثم عن طريق بعث حبّ الأجر من الله أو حبّ المال فيهم، مونّباً إياهم:

وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغى فهلّا أتوه رغبة في الغنائم

ثم يذكرهم بختم أمرهم إلى الذل، إذا بقوا راضين على هذا الذل، والاستسلام أمام العدو بتعبير كنائي:

لئن أذعَنَت تلك الخياشيمُ للبُرَى فلا عطسوا إلا بأجدَعَ راغِمِ

(الأبيوردي، ١٩٨٧، ص١٥٦)

ومن الأبيات في هذا المجال قول العماد في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين لمّا فتح بيت المقدس، هاجياً الملوك قبله الذين لم يقوموا بتحريرها:

كم من فُحولِ ملوك غودروا وهمُ خوفَ الفرنجة ولدانٌ ونسوانُ
استَصرَخَت بملكشاهٍ طرابلسٌ فخام عنها[1] وصُمَّت منه آذانُ
هذا وكم مَلِك من بعده نَظرَ الـ إسلامَ يطوَى ويُحوَى وهو سكرانُ
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ إسلامُ أنصارُه صُمٌّ وعميانُ

(المقدسي، دون تا، ج٢، ص١٠٥)

وقد قصد الشاعر انتساب الفضل في فتح البلاد المحتلة إلى صلاح الدين دون غيره من الملوك وقد وفّق في ذلك.

٤-٨- الإشادة بالعزم الماضي للملوك المسلمين في الجهاد

وقد كان لهذا الموضوع في أشعار الحروب الصليبية أثر بعيد في تخفيز هؤلاء الملوك المجاهدين وتقوية معنوياتهم الجهادية. من أمثلة ذلك ما قال ابن القيسراني في قصيدة

---

١ ـ خام عنه: نكص وجبن وأحجم عنه/ الربق: حبل فيه عدّة عرى

أنشدها لنور الدين بجسر الحديد الفاصل بين حلب وعمل أنطاكية، مؤكداً على شدّة أثر الهمم البعيده في الانتصار ولا السيوف لوحدها، ولا ما تكهّنته الكتب، متأثراً بأبي تمام في ذلك، ومشيداً بعزمه الماضي:

هـذي العـزائمُ لا مـا تَـدَّعي القُضُـبُ وذي المكـارم لا مـا قالـتِ الكتـبُ
وهـذه الهمـمُ الـلاتي مـتى خَطَبَـت تَعثّـرَت خلفَهـا الأشـعارُ والخُطَـب
للّه عزمُـك مـا أمضـي وهمُّـك مـا أقضى اتّساعاً بما ضاقت به الحِقَـبُ

(المقدسي، دون تا، ج١، ص٥٨)

وهذه القصيدة في وزن قصيدة أبي تمام، ورويها ومعانيها أنشدها عند فتح معتصم لعمورية وأخذها من الروميين، وتأثّر بها شعراء الحروب الصليبية تأثراً بعيداً، وقد أرجع أبو تمام الفضل في انتصار معتصم على الروم إلى السيوف دون التكهنات، وأرجعه ابن القيسراني إلى عزم نور الدين ولا إلى السيوف.

وأشاد عمارة اليمني بعزم بني أيوب بأنه «عزمة أسدية» وهو الذي استطاعوا به أن يفككوا الإسلام من الأسر:

حمـى اللّه فـيكم عزمـة أسـديةً فككتُم بها الإسلامَ مِن رِبقةِ الأسرِ

(المقدسي، دون تا، ج١، ص١٦٣)

ويصف كمال الدين الشهرزوري عزم الملك نور الدين بأنه مفتاح المغلقات من الحصون:

كـم مُغلَقـاتٍ مـن حُصـونٍ عَزمُـه مِفتاحُهـا وسـيفُه إقليـدُها[1]

(المقدسي، دون تا، ج١، ص١٤٨)

وافتتح أبو الحسن علي بن الساعاتي قصيدته في مدح صلاح الدين لما فتح طبرية، ببيان عظمة عزمات الملك، وأنّ الفتح نتج عن هذه العزمات:

جَلَـت عَزماتُـك الفـتحَ المبينـا فقـد قَـرَّت عيـونُ المؤمنينـا

(ابن الساعاتي، ١٩٣٨، ص٤٠٦)

ويتضمّن الإشادة بعزمات الملوك المسلمين في جهاد الصليبيين غرضاً آخر ضمنياً، وهو تحفيز هؤلاء الملوك على مجاهدات أكثر لفتح البلاد المحتلة، وهو الذي مدحوا بسببه عزمهم.

---

١. الإقليد: المفتاح

٤-٩- تصوير ذلّ الصليبيين وهزيمتهم وأسرهم

يدلّ هذا التصوير من قبل شعراء الحروب الصليبية متغنّين بها فرحين، على انطباع نفوسهم بالعزّة الإسلامية، متجلّية في أشعارهم. وهذا المحور الشعري قد استغرق أكثر الحجم بين أشعار الحروب الصليبية.

من أجمل الأشعار في هذا المجال، أبيات طلائع بن رزيك الذي أخذ يصوّر فيها الهزائم التي ألحقها مع جيوشه بالعدو الصليبي، في تصاوير جميلة موحية، وشعره هذا في ذروة العزّ، يصوّر هزيمتهم أجمل تصوير، وعزّ المسلمين وغلبتهم عليهم:

جَعلنا جبالَ القدس فيها وقد جَرَت ... عليها عِتاقُ الخيل كالنَفنَف السُهب
فقد أصبحت أوعارُها وحُزونها ... سهولاً تُوَطَّا للفوارس والركب
ولمّا غدت لاماءَ في جنباتها ... صببنا عليها وابلاً من دمٍ سكب
وجادت بها سُحبُ الدروع من العدا ... نجيعاً فأغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوقَ جبالها ... ولكن بحارٌ ليس تَعذُب للشُرب
فقد عَمَّها خَصبٌ به من رؤوسِهم ... بها ولكم خَصب أضرُّ من الجَدب
وقد رَوَّعَتها خيلُنا قبلَ هذه ... مراراً وكانت قبلُ آمنةَ الشِّرب
وأخفى صهيلُ الخيل أصواتَ أهلها ... فعاقَت نواقيسَ الفرنجِ عن الضربِ[1]

(العماد، ١٩٥٢، ص١٧٩)

لقد كان جيش طلائع أقوى ما يكون، فقد كان لديه خيول عتاق تجتاز الجبال بسهولة كأنها أرض مستوية، وقد سقى هذا الجيش القوي هذه الأراضي بوابلٍ من دماء الأعداء، والدروع اللمّاعة ساعدت في سكب دم الأعداء، فأغنتهم عن تسكاب السحب، بحيث أجريت بحار من دمائهم، وهبطت رؤوسهم المقطوعة على الأرض فأخصبت بها، حالما لم تكن هذه المرة أولى مرة روّعهم هذا الجيش، وكان ارتفاع صهيل الخيول في الحَرب بحيث حال دون وصول صوت نواقيسهم إلى الآذان. والشاعر يتكلّم في الشعر من موضع القوّة والقهر، يسفر هذا عن قوة روح العزّة فيه وفي

١. النفنف: المفازة/ السهب: الأرض المستوية البعيدة/ الحزون: ج الحزن: ما غلظ من الأرض/ النجيع: الدم المائل إلى السواد

جيوشه، ولا يستبعد ذلك، فإنهم كانوا في موقف حقّ، وعدوّهم المحتلّ في موقف باطل.

والشهاب محمود في مدح الأشرف خليل، لما أخذ عكا من الصليبيين، يصوّر المعركة وما أُلحق بهم فيها وهزيمتهم، في تشبيهات لطيفة موضحة، ففي هذه المعركة غاصت البيض في بحر الدماء، وغاصت الأسنة في عيونهم الزرقاء كالحبال التي تهوى إلى الآبار، اشتدّ لهيبُ الحرب حتى ذاب الحديد من حرّها، وزلزل أبطالهم الذين كانوا كالجبال الراسخة من شدة الهول، وأجري بحر من دمائهم، فصار غرقاه كالحبب عليه:

وخاضَتِ البيضُ في بحر الدماء وما ... أبدت من البيض إلا ساقُ مُختَضَبِ
وغاض زُرقُ القنا في زُرق أعينهم ... كأنّها شُطنٌ تَهوِي إلى قُلُب
تَوقّدَت وهي غَرقَى في دمائهم ... فزادها الطفحُ[1] فيها شدّةَ اللَهبِ
وذابَ مِن حَرِّها عنهم حَديدُهم ... فقيَّدَتهُم بها ذُعراً يدُ الرَهَبِ
كم أبرزَت بَطَلاً كالطود قد بَطَلَت ... حَواسُه فغَدا كالمَنزِل الخَرِبِ
أجرَت إلى البحر بحراً من دمائِهِمُ ... فراح كالراح إذ غرقاه كالحَبَب

(رزق سليم، ١٩٦٥، ج٨، ص٥٥)

التصاوير الفنية البديعة، والأخيلة الرائعة، والبيان الصادق ـ التي نجمت عن قلب مفعم بأحاسيس مكافحة الضيم ـ من خصائص بارزة لهذه الأبيات، التي تنبئ عن ترسّخ روح العزّة في ناظمها الغيور.

١. الطفح: الامتلاء

الخاتمة

تموج أصداء العزة وإباء الظلم في الأشعار الحماسية للحروب الصليبية، ولا يكون ذلك إلا بترسّخ روح العزّة في نفوس منشديها، الذين لهم جذور تقع في زلال ماء الثقافة الإسلامية، واتّصلوا بمصدر العزّة والقوّة الإلهية اللا متناهية. والمحاور الشعرية مثل: تمنّي رؤية فتح البلاد المحتلّة وانتزاعها من المحتلّين الصليبيين، وبعث الغيرة في النفوس واستنهاض هم أمراء المسلمين للجهاد، والاستنكار على أمراء يتقاعسون عن جهاد الصليبيين وعن نصرة إخوانهم المقاتلين، والتنويه بحكام حملوا لواء التصدي للمحتلين وأذاقوهم الذلّ، والإشادة بعزيمة هؤلاء ومضاء هممهم، والعناية بوصف الأضرار التي ألحقها هؤلاء الأمراء بالمحتلّين، وما لحق بهم من القتل والتشريد والأسر، ومدح من قام بأعباء جهاد المحتلين واسترداد البلدان المحتلّة منهم بعلوّ همتهم وعزمهم الماضي، وتحريض قادة المسلمين خاصة على استرجاع بيت المقدس، وتقوية عزائم هؤلاء للاستمرار في الجهاد؛ تنضح بأسرها من هذه الروح فيهم.

المصادر والمراجع

١. نهج البلاغة.

٢. ابرهارد ماير، هانس (١٣٧١ش). جنگهاي صليبي. ترجمه عبدالحسين شاهكار، شيراز: انتشارات دانشگاه شيراز.

٣. الأبيوردي، محمد بن أحمد (١٩٨٧). *الديوان*. تحقيق عمر الأسعد، دمشق: دار الفكر.

٤. ابن الساعاتي، بهاء الدين (١٩٣٨). *الديوان*. تحقيق أنيس المقدسي، بيروت: الجامعة الأمريكية، كلية العلوم والأداب.

٥. ابن سناء الملك، عز الدين أبو القاسم (١٩٧٥). *الديوان*. تحقيق محمد عبد الحق، بيروت: دار الجيل.

٦. ابن عنين، نصر بن حسين (١٩٥٩). *الديوان*. تحقيق: خليل مردم بك، بيروت: دار صادر.

٧. ابن نبيه المصري، كمال الدين أبو الحسن (١٩٦٩). *الديوان*. تحقيق عمر محمد الأسعد، دمشق: دار الفكر.

٨. رنيسمان، استيون (١٣٨٠ش). *تاريخ جنگهاي صليبي*. ترجمة منوچهر كاشف، طهران: شركت انتشارات علمي وفرهنگي.

٩. رزق سليم، محمود (١٩٦٥). *عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي*. دار المجامين.

١٠. الحلي، صفي الدين (دون تا). *الديوان*. بيروت: دار صادر.

١١. عاشور، فايد حماد (١٩٨٨). جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٢. العروسي المطوي، محمد (١٩٥٤). *الحرَوب الصليبية في المشرق والمغرب*. تونس: دار الكتب الشرقية.

١٣. العماد الإصفهاني (١٩٥٢). *خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٤. عمارة اليمني، نجم الدين الحكمي (١٨٩٧). *النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية*. تصحيح هرتونغ درنبرغ، مدينة شالون: مطبعة مرسو.

١٥. عمران، محمد سعيد (١٩٩٩). *تاريخ الحروب الصليبية*. بيروت: دار النهضة العربية.

١٦. گروسه، رنه (١٣٨٤ش). *تاريخ جنگهاي صليبي*. ترجمه ولي الله شادان، طهران: انتشارات

وزارت ارشاد اسلامي.

۱۷. مجلسي، محمد باقر (۱۹۸۳). *بحار الأنوار*. تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

۱۸. المقدسي، شهاب‌الدين أبو شامة (دون تا). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. بيروت: دار الجيل.